

... حتى إذا ...

د. مكّي الحسني (*)

سأتحدث عن هذا «التركيب» - حتى إذا - حين يأتي في سياق الجملة، لا في بدايتها. وقد ورد كثيرًا في القرآن الكريم (٤٠ مرة) وفي كلام العرب وشعرائهم.

(حتى) في هذا التركيب حرف للابتداء تضمّن معنى الغاية. و(إذا) ظرف متضمّن معنى الشرط، [والفعل الذي يليه هو فعل الشرط] وهو متعلق بجواب الشرط [الظاهر غالبًا والمحذوف أحيانًا للعلم به]. وحين يرد هذا التركيب يكون الكلام قبله معبرًا عن حدثٍ دام مدةً إلى أن وقع فعل الشرط (المذكور بعد إذا). ولما حدث فعل الشرط حدث جواب الشرط. وفيما يلي بعض الأمثلة.

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا...﴾ [غافر: ٣٤].

المعنى: دام الشك في قلوبكم إلى أن هلك يوسف. ولما هلك قلتم (جواب الشرط) لن يبعث الله من بعده رسولاً.

٢- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا...﴾ [الكهف: ٧١].

المعنى: انطلق العبد الصالح (الخضر) وسيدنا موسى من موضع التقائهما، ودام انطلاقهما إلى أن ركبا في السفينة (فعل الشرط). ولما ركبا في السفينة خرقها (جواب الشرط) العبد الصالح.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣- وفي السورة نفسها: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾

المعنى: انطلقا ودام انطلاقهما إلى أن لقيا غلامًا (فعل الشرط) فقتله الخضر (الفاء عاطفة للتعقيب). ولما قتل الغلام قال له موسى (جواب الشرط): أقتلت نفسًا...

٤- وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُم مِّنْ بَاطِنِهِ إِذًا فَنَسِيْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ [آل عمران: ١٥٢]. تتحدث هذه الآية عن مشهد من مشاهد غزوة أُحُد.

المعنى: لقد صدقكم الله وعده حين كنتم تقتلون المشركين بإذنه (بإرادته) واستمر معكم النصر إلى أن فشلتكم (فعل الشرط) أي جبتكم وتنازعتكم وعصيتكم. ولما حدث هذا، حدث جواب الشرط، وهو هنا محذوف تقديره انقسمتم فريقين: فريق يريد الدنيا والغنائم، وفريق يريد الآخرة وثوابها، فتخلف وعد الله ومنعكم النصر!

٥- قال ذو الرمة:

قومٌ يوارون عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء

٦- قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾

[الزمر: ٧١].

سوق الذين كفروا إلى جهنم دام مدة إلى أن جاؤوها (فعل الشرط)، ولما حدث هذا، حدث جواب الشرط: فُتحت أبوابها...

٧- وفي السورة نفسها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ...﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤]. هنا أيضًا سوق الذين اتقوا ربهم

إلى الجنة زمرة دام مدة إلى أن جاؤوها (فعل الشرط)، ولما حدث هذا، وبعد ترحيب

خزنة الجنة بهم، حدث جواب الشرط، وهو هنا محذوف تقديره: دخلوها! وقالوا

الحمد لله...